الفصل السابع عشر

فاكهة أفروديت

غادر فيليب ملك فرنسا صقلية في 30 آذار/ مايو سنة 1191م في استياء واتّجه إلىٰ الديار المقدَّسة. لقد تركها على وجه السرعة ومن دون أية مراسم، إذ كان يريد أن يتفادى حرج اللقاء مع الأميرة بيرنغاريا، التي حلّت مكان أخته غير الشقيقة آليس خطيبةً لريتشارد. وبمعزل عن حالته النفسية، كان سفر فيليب مسهّلاً لم يعقه أي حادث مؤسف، فوصل إلىٰ عكّا بعد ثلاثة أسابيع في 20 نيسان/ أبريل بمعنويات جيّدة.

أمّا ريتشارد، ففي كلّ مراحل حياته، كانت لانطلاقاته جلبة أكثر ولأسفاره وقع الدراما. معه انطلق القسم الأعظم من الأسطول الصليبي، الذي ارتفع عدده خلال الشتاء بدرجة كبيرة. وصارت لوجستيات تنظيمه ليعبر البحر المتوسّط على شيء كثير من التعقيد. وبعدما تصالح ريتشارد مع الملك الصقلّي، دكّ في بادرة رمزية قصره الخشبي الاستفزازي، ماتي غريفون، قبل أن يقول وداعاً بنبرة لعوبة. وفي 10 نيسان/ أبريل انطلق الأسطول الكبير في البحر، وكان عدد سفنه 219، اتجهت كلها صوب الشرق.

في ثلاث من أبطأ سفنه ولكن أقواها، وكانت تسمّى الدرمندات، وضع

بيرنغاريا وأخته جوانا، ترافقهما كتيبة من الحرس الملكي وحصة لا بأس بها من كنوزه، وأرسل الجميع ليكونوا في الطليعة. وأصبحت هذه الدرمندات الملكية الثلاث رأس مثلّث كبير في عرض البحر. كانت هناك ثمانية صفوف، يزيد عدد سفن كلّ منها عن الذي يسبقه وذلك حتى الصف السابع، الذي كانت تشكّله ستّون سفينة منتشرة في خطّ واحد. وبقي ريتشارد في المؤخّرة مع بعض أسرع قوادسه. كان هذا الأسطول يبدو من بعيد مثل سرب من الطيور، كما لاحظ أحد المؤرّخين. وبفضل الريح العليلة التي حلّت عليه في يومه الأوّل في البحر، أبحرت السفن متقاربة بما يكفي لتتّصل الصفوف فيما بينها بالبوق أو حتّى بمجرّد الصراخ. وعندما هبط الليل، تبعت السفن ضوء شموع كبيرة وُضعت عالياً في سفينة المقدّمة كما وضع مثلها في سفينة الملك في الخلف.

لكن النسيم اللطيف لم يستمر. في يوم الجمعة العظيمة، بقي الأسطول هادئاً، ولكن في اليوم التالي، يوم العيد، هبّت ريح عاصفة أخذت الأسطول بكامله في غمرة غضبها. فتبعثرت الصفوف الهندسية الأنيقة، وأضحى التواصل مستحيلاً. وعجز القباطنة عن إبقاء سفنهم في خطوطها واضطروا إلىٰ بذل كلّ جهدهم ومهارتهم لمجرّد أن تبقى عائمة. وصارع الجنود للحفاظ على حياتهم وتحوّل كهنة الأسطول إلىٰ إرميا لأنّه كان صوت الرب: «الذي جعل الأبخرة تتصاعد من أطراف الأرض... وأطلق الرياح خارج كنوزه».

عندما هدأ البحر أخيراً، كان الأسطول الصليبي مشرذماً وسفنه متباعدة على مساحة واسعة، تطلّبت من ريتشارد بضعة أيام لإعادة تجميعه. وقد شبّه أحد الكتّاب هذه العملية بتجميع الدجاجة لفراخها. لكن بعض الفراخ بقيت مفقودة، وأهمّها الدرمندات الثلاثة التي كانت في المقدّمة، وعلى متنها ملكة إنكلترا العتيدة.

بعد عشرة أيام في البحر ألقى الأسطول المصاب مرساته عند سفح جبل إيدا في كريت وكان عزاؤه أنّ هذه الجزيرة التي كانت مكان ولادة زيوس هي

محطّة على منتصف الطريق بين صقلية وفلسطين. بعد أيام قليلة، انطلق الأسطول مجدّداً تحت ريح شديدة استمرّت طوال الليل. وفي الصباح وجدت السفن نفسها عند شواطىء رودس الصخرية.

بين آثار هذه الجزيرة القديمة، التي تحفل بتاريخ عظيم ثمّ لم تعد أكثر من ظلّ لمجدها السابق، مكث ريتشارد عشرة أيام. وأثناء انتظاره وصول السفن التائهة، أعاد تزويد أسطوله بالمؤن من الحقول الخصبة القريبة. وشعر الملك بالتوعّك بعد ذلك العبور العسير، ولكن ليس إلىٰ درجة تمنعه من إرسال عدد من أفضل قوادسه وأسرعها لتبحث عن خطيبته. وبعد فترة قصيرة وجدها هؤلاء المستطلعون على بعد مئات الأميال في قبرص، فقد قادت العاصفة سفن المقدّمة الثلاث أكثر باتجاه الجنوب، فتحطّمت إحداها على صخور أفروديت، ليس بعيداً عن ميناء ليماسول، لكن سفينة بيرنغاريا وصلت إليه سليمة ورست قبالته. وكانت الأميرة بخير لا يزعجها إلاّ المهانة.

كان على جزيرة قبرص والٍ بيزنطي اسمه إسحق كومنينوس Isaac Comnenus، وقد عامل التائهين الصليبيين معاملة جائرة. فبين الذين غرقوا مع السفينة المحطّمة كان نائب مستشار الملك، الذي كان يضع دائماً ختم الملك حول عنقه، فقبض الإمبراطور القبرصي على هذه القلادة الملكية، وعلى كلّ النقود التي أمكن مصادرتها من السفينة، وسجن الناجين، ورفض السماح لبيرنغاريا بدخول ثغر ليماسول، ومنع جنودها من الوصول إلىٰ الشاطىء لأخذ الماء.

لكن الإمبراطور سيدفع ثمن خشونته هذه. فعندما تلقّى ريتشارد أخبار بيرنغاريا، انفجر غاضباً: من هو ذاك الطاغية التافه؟ أراد أن يعرف. كيف يجرؤ على اعتقال الحجّاج وسرقتهم في طريقهم إلىٰ الديار المقدّسة؟ على ما يبدو، لم يكن إنقاذ بيرنغاريا هو ما يشغل بال ريتشارد، لكن المسألة كانت مسألة مبدأ بالنسبة إليه.

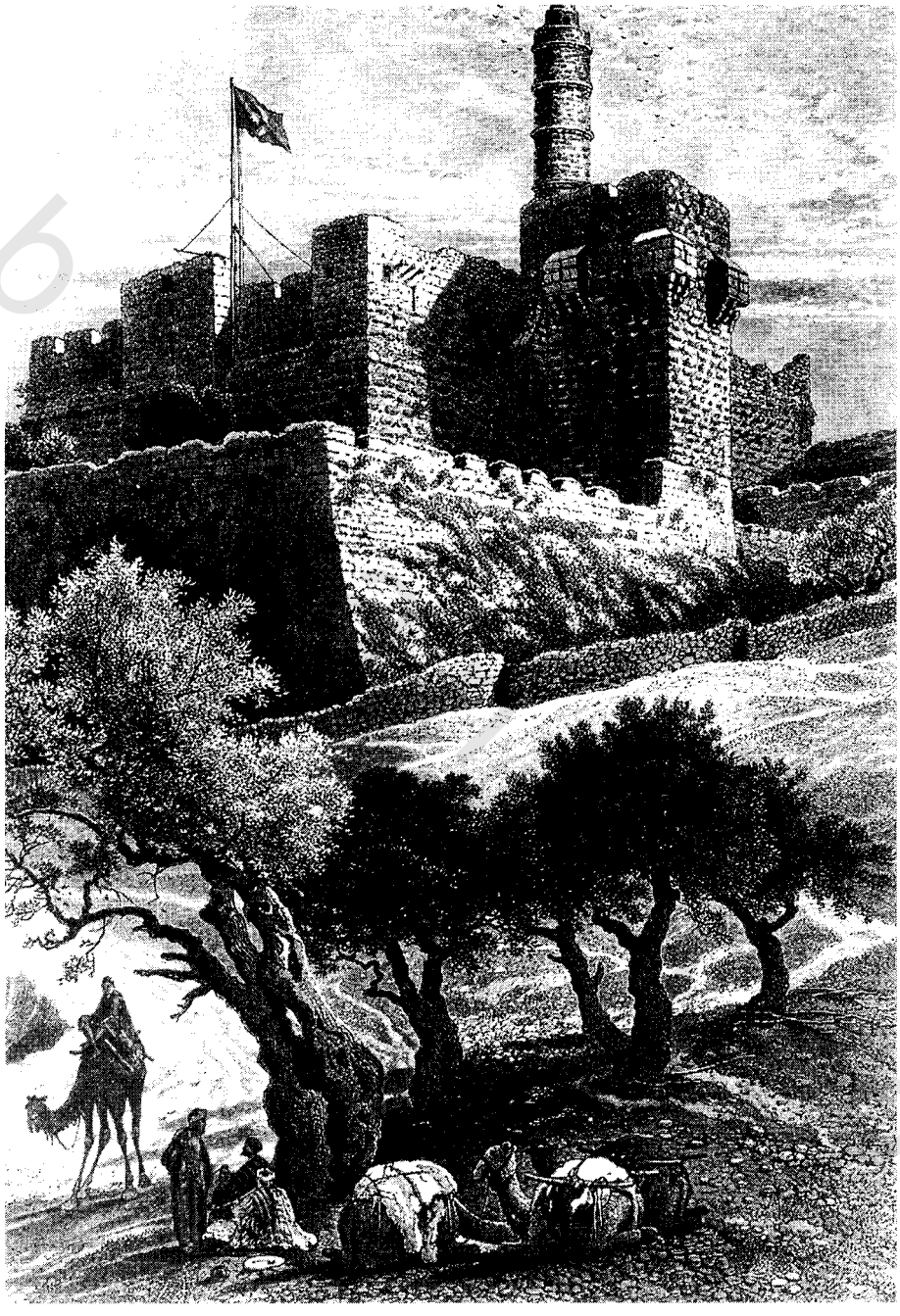

قلعة القدس، المشرفة على الجلجلة، قبة الصخرة والمسجد الأقصى من كتاب Picturesque Palestine لـ س.و.ولسون (مكتبة Gelman، جامعة جورج واشنطن).

تمثال صلاح الدين، سوق الحميدية، دمشق (أنطون مزاوي).

تمثال ريتشارد قلب الأسد، مبنى البرلمان، لندن (Judah Passon).

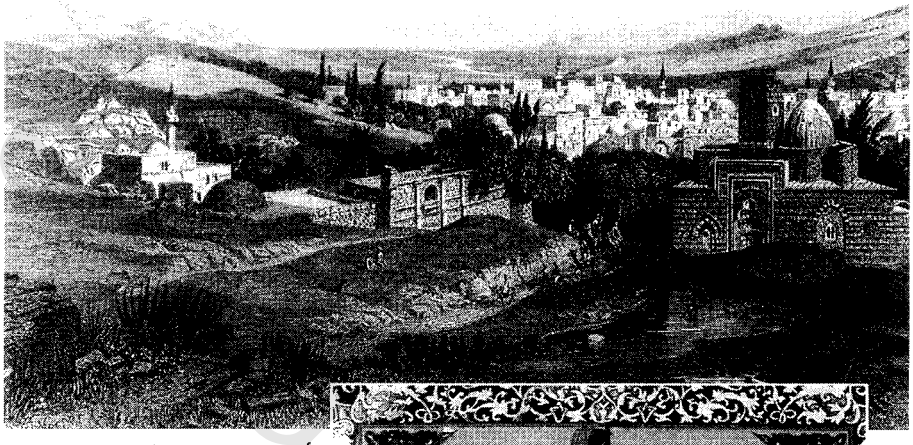

أنهار دمشق، من كتاب
Picturesque Palestine
لـ س.و.ولسون
(مكتبة Gelman، جامعة جورج واشنطن).

رسم قديم لصلاح الدين

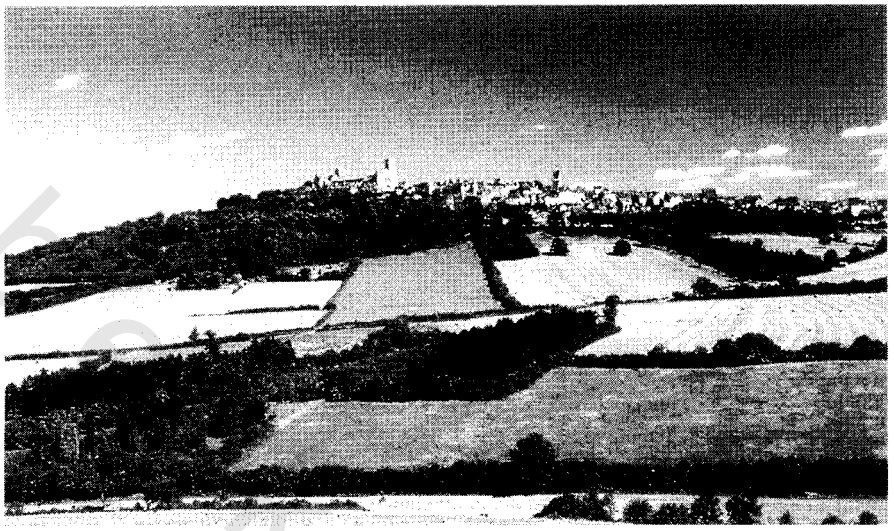

نقطة تحرك الحملة الصليبية الثالثة
(الهيئة الإقليمية للسياحة في برغندي)

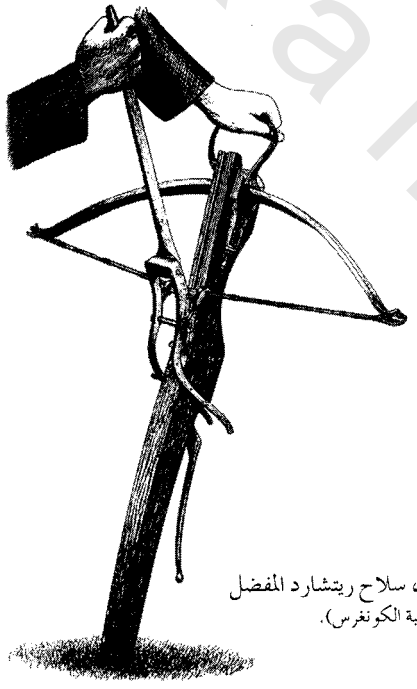

القوس القذوف، سلاح ريتشارد المفضل
(مكتبة الكونغرس).

obeikandl.com

قرون حطين، حيث انهارت مملكة القدس

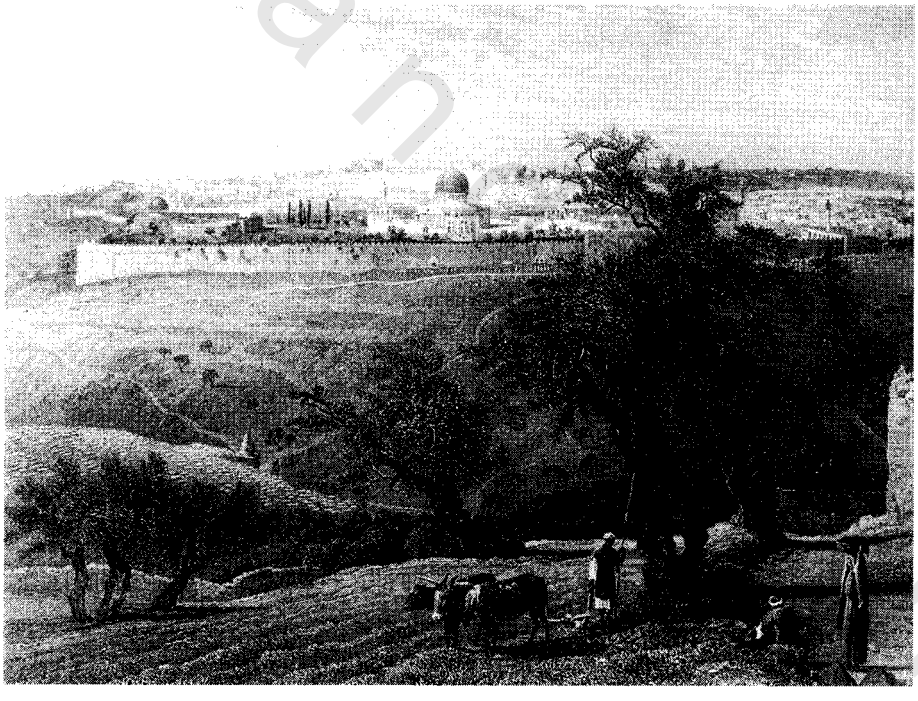

القدس كما تبدو من جبل الزيتون، من كتاب Picturesque Palestine
لـ س.و.ولسون (مكتبة Gelman، جامعة جورج واشنطن).

وأطلع المستشارون ملكهم على كلّ ما يعرفون، أي أنّ إسحق كومنينوس كان ابن أخ إمبراطور بيزنطي بالقسطنطينية؛ وقد وقع في شبابه في إحدى الحروب مع الأرمن في الأسر وقيّده الأوروبيون بالسلاسل لسنواتٍ، فنشأ عنده مذ ذاك كره عميق للاّتين وعقدة من السلاسل. وقد وصل إلىٰ قبرص قبل ثلاث سنوات آتياً من القسطنطينية، وتمرّد، ونجح في فصل الجزيرة عن الإمبراطورية البيزنطية. وهو الآن يحكم قبرص حكماً مستقلاً ولكن شعبها يشتمه بسبب جوره وغشّه. وقد فرّ العديد من مواطني الجزيرة الميسورين والمنتجين، بينما استُغلّ الذين بقوا وسُرقت منهم ثروتهم.

لقد كتب راهب يدعى نيوفيتوس عن نكبة قبرص تحت حكم إسحق وقال: «لم يكتفِ إسحاق بالإساءة إلىٰ البلاد وسلب ممتلكات الأثرياء، ولكنه ضايق أيضاً ضبّاطه أنفسهم، وفرض عليهم العقاب يومياً، واضطهدهم وملأ حياتهم كلّها بالبؤس».

وبتدخّل محفوف بالخطر من قبل قبرصي نزيه (قُطع رأسه فيما بعد بسبب الاضطرابات التي أثارها) تمكّن الناجون من حطام السفينة من الإفلات من حكم الإمبراطور العنيف عليهم بالإعدام. وقد حاول خداع الملكتين السابقة والعتيدة لتقتربا من الشاطىء، لكنهما لحكمتهما تردّدتا، وفضّلتا الخلاص على يد الملك ريتشارد. وكان يقال إنّ إسحٰق كان صديقاً لصلاح الدِّين نفسه وإنّ أحدهما شرب من دم الآخر عربون أخوّة في طقس غريب وهمجي. إثر سماعه لهذا الوصف للإمبراطور الشرير، طلب ريتشاردُ اثنين من أسرع قوادسه، وجهّزهما بمجموعة من نخبة العساكر، ومضى إلىٰ عملية الإنقاذ.

انطلق ريتشارد مباشرةً إلىٰ صخب خليج الأناضول، حيث تتلاطم أمواج أربعة بحار ويصعب توقّع تحرّك رياح «الميلتمي Meltémi». كان هذا الامتداد الخادع من المياه كابوساً للبحارة، وكان يقال إنّه حلّت عليه لعنتان. الأولى من أسطورة عن آنسة رفضت فارساً طوال حياتها، وليلة وفاتها، أتى الفارس إليها

وضاجعها. فدخل الشيطان جسدها وبعد تسعة أشهر أنجب ولداً مُخدَجاً. فقطع الفارس رأس ابن الشيطان وحفظه في صندوق ومتى هاجمه أعداؤه، كان يكفي أن يرفع الرأس في وجههم فيُهزمون. ثمّ تزوّج هذا الفارس، ودعا الفضول عروسه إِلىٰ الرغبة في اكتشاف سبب قدرة زوجها على قهر جيوش كبيرة دون مساعدة جندي من جنوده. فبحثت ذات يوم في غرفته ووجدت الرأس في الصندوق ولشدّة ذعرها، ركضت صوب المياه ورمت بالرأس إِلىٰ البحر. بعد ذلك قال البحّارة إنّه حين يكون وجه الرأس العائم إِلىٰ أعلى، يزمجر البحر عواصف مرعبة، وإن كان الوجه إِلىٰ أسفل، يكون البحر هادئاً وتمرّ السفن من دون عائق.

وتقول الأسطورة الثانية إنّ تنيناً أسود اللون هائل الحجم كان يتردّد إِلىٰ الخليج ولشهر واحد خلال السنة كان يغطس رأسه في البحر ويرشف كمية هائلة من المياه. وإن كان البحارة لا يريدون أن يمتصّهم فم التنين الفاغر، فعليهم أن يصرخوا عالياً ويضربوا عصاتين ببعضهما لإخافته بينما هم يجتازون الخليج.

سواء بسبب رأس الشيطان المتّجه إِلىٰ أعلى أم بسبب التنين الأسود، فإن الرياح تقاذفت السفن الملكية، التي راحت تدور كاللوالب، يردّها التيار إِلىٰ الوراء، ثمّ تدفعها الرياح إلى الأمام. وكتب أحد الحجّاج يقول: «خوفاً من غضبه، فعلنا كلّ ما في وسعنا لنحمي أنفسنا من مخاطر المكان، ونتجاوز الأمواج التي كانت ترغي وتزبد من حولنا».

يبدو أنّ السفن عبرت هذه البقعة الخطرة والتقت بسفينة كبيرة عائدة من الديار المقدَّسة. فعرف ريتشارد من بحارتها أنّ فيليب وصل سليماً إِلىٰ عكّا، وأنّه كان يبني آلات الحصار، وينتظر وصول ريتشارد بفارغ الصبر. فمضى ريتشارد قدماً بمعنويات عالية.

وجد ريتشارد سفينة بيرنغاريا خارج ميناء ليماسول راسيةً في عرض البحر، تتلاعب بها الرياح والأمواج، وكانت الآنسة في حالة يائسة. فارتفعت

حرارة الملك من جديد، وأرسل إلىٰ الإمبراطور المزعوم رسالةً مفاجئة بتحفّظها، نظراً لازدراء ريتشارد عادة للمتنمّرين وضيعي الأصل: محبّةً بالرب واحتراماً للصليب، على الإمبراطور أن يطلق سراح أسراه ويعيد أموالهم وممتلكاتهم، وكذلك الكنز الذي استحوذ عليه من حطام السفينة. إن فعل هذا سيسدي به خدمة لله، فيكمل الأسطول الصليبي مسيرته مباشرة إلىٰ الديار المقدَّسة من دون المزيد من اللغط. لكن الردّ على رسالة ريتشارد جاء رفضاً جافياً يقول إنّ الإمبراطور لن يطلق أسراه ولن يسلّم ذهبهم. إضافةً إلىٰ ذلك، ليس لإمبراطور، أن يتعاطى مع مجرّد ملك.

عند هذه الإهانة ارتدى ريتشارد درعه وأصدر الأوامر لكلّ جنوده بأن يفعلوا مثله: «اتبعوني»، قال لهم ممسكاً بطرف عارضة الشراع، «اتبعوني، كي نثأر للأذى الذي ألحقه هذا الإمبراطور الغادر للرب ولنا، إنّه يهذر ضد عدالة الله ويبقي حجّاجنا مقيّدين». ثمّ نظر ريتشارد إلىٰ الشاطىء ورأى الإمبراطور يختال راكباً جواده وجنوده وراء متاريسهم المؤقّتة يطلقون التهديدات فقال: «لا تخافوا منهم، فهم من دون أسلحة حقيقية، إنّهم مهيّئون للفرار وليس للقتال». وأعجب ريتشارد بشكل حصان الإمبراطور.

انطلقت المراكب وضرب الصليبيون الشاطىء بشجاعة. فأمطرت أقواسهم سهاماً على المدافعين المساكين، «كالمطر فوق العشب» قال أحد المراقبين: في البداية، أدّى القبارصة، الذين يعوزهم التدريب الحسن، بأقواسهم ومقاليعهم دفاعاً جريئاً وعنيداً، لكن رماح الأوروبيين وسهامهم الحديثة حصدتهم بلا رحمة. فانهارت المتاريس، وفرّ المدافعون منسحبين في فوضى، أوّلاً إلىٰ داخل المدينة ثمّ إلىٰ السهل وراءها. حال وصول ريتشارد إلىٰ الشاطىء، طلب حصاناً وحاول أن يلحق الإمبراطور علّه يستدرج هذا الشرير إلىٰ مبارزة فردية. لكن جواد الإمبراطور الرائع كان سريعاً جدّاً وحمل إسحق إلىٰ البعيد.

خلال الليل أنزل الصليبيون خيولهم الكبيرة إلىٰ البر. لكن الدواب كانت مرهقة من التأرجح المتواصل في البحر ومترهّلة من السجن منذ شهر، وبالتالي لم يكن بالإمكان دفعها، لا سيما إلىٰ معركة. وهكذا تقدّم الملك باكراً في صباح اليوم التالي، مع خمسين فارساً بحذر شديد خمسة أميال إلىٰ الشرق قرب قلعة تدعى كولوسي، جمع فيها إسحق جنده واستعدّ للقتال. حتّى في وميض الفجر الخافت، والمعسكر نائم، بدا الجيش المحلّي مثبطاً للهمّة. وكان أحد الموظّفين المرافقين من الجرأة بحيث همس للملك قائلاً: «سيدي، أرى أنّه من الحكمة أن نتفادى معركة مع هذا الحشد الهائل والجبّار». فأجابه الملك: «أيها الشاب، من الأفضل أن تنكبّ على كتاباتك، وتترك أمر الحرب لنا. احرص على أن تبقى بعيداً عن التجمّعات».

وكان الاشتباك في كولوسي سريعاً، وعنيفاً، وقصيراً. وهزمت مفاجأةُ الجيش الصغير للمعسكر النائم الجيش القوي والكثير. وقيل لاحقاً إنّ ريتشارد إمّا طارد الإمبراطور عبر منطقة الخيم أو انتزع حصان الشرير. ففي حالته المهينة، ولّى الإمبراطور الأدبار على جواده الأصفر العربي الجميل. وبينما كان إسحق يفرّ عبر جبال ترودوس باتجاه نيقوسيا، عاد ريتشارد إلىٰ ليماسول بغنائم لا بأس بها، بما فيها كؤوس ذهبية وخيم إمبراطورية وراية جميلة كانت للإمبراطور نفسه، اعتبرها الملك ملكية خاصة قيّمة. لكنه كان يريد الإمبراطور، وجواده الأصفر الرائع.

في البلدة أصدر ريتشارد مرسوماً للسكان المحلّيين وعد فيه كلّ من يقف في صفّه بالمعاملة الحسنة واللائقة، وحماية المنازل، بينما سيكون قاسياً مع الذين يبقون مستنفرين ضدّه. وركّز الملك على عامل اللباقة النفسي في الحرب وطلب من جنوده أن يقيموا حاميتهم خارج البلدة في المراعي القريبة، كي لا يجرح أحداً من السكّان الأصليين. فمال القبارصة إلىٰ الجانب الإنكليزي، وقد كتب بمرارة فيما بعد المؤرخ القبرصي المحلّي **نيوفيتوس** Neophytus أنّ

الملك الإنكليزي، «الخسيس»، وجد في قبرص «أمّاً حنوناً». ولو لم يكن القبارصة بهذا الإذعان، أكمل الكاتب، لكان ريتشارد لاقى على جزيرته المصير الذي ناله الملك الألماني، فريدريك بربروسا، في تركيا. وبالفعل كانت الجزيرة أمّاً حنوناً حقيقية.

بعد انتصاره الحديث على الوغد المحلّي، من الطبيعي أن تكون معنويات ريتشارد مرتفعة. ويبدو أنّه كان ملتفتاً التفاتة خاصة إلى الجغرافيا السياسية في مملكته الأوروبية؛ لأنّه في ذلك اليوم، وكان يوم أحد ويوم عيد القديس الشهيد بانكراس Pancras، وبعد موسم الصوم الكبير بفترة، تزوّج بيرنغاريا. وعلى أرض أفروديت وأدونيس كان للمناسبة مظهر رومانسي وحسّي. وقد عقد نيكولاس، قسيس ريتشارد الشخصي، القران في كنيسة صغيرة في قلعة ليماسول منذورة للقديس جورج قاتل التنين. وتميّز الاحتفال بكلّ الأبّهة الملكية التي يستحقّها. وأُخذ المشاهدون بذلك الثنائي الذي بدا رومانسياً ومتكاملاً.

وهناك في ليماسول تُوّجت
أجمل العرائس في زمانها
ملكة فاضلة حلوة القسمات
الآن اكتمل مجد الملك
لأنه انتصر
ولأنه اقترن بزوجة
أعطاها كلمته وحياته

بالنسبة إلى الحاضرين الذين تبعوا المنزل الملكي بعيون تتلألأ فيها الدموع شكّل العروسان ثنائياً رومانسياً، وقد كتب شاعر حاضر: «وفيما بعد سُمّيت الملكة. شيء جميل، أحبّها الملك وأجلّها». بعد ذلك، قام أسقف

إيڤرو Evreux، يساعده أسقف بايون Bayonne ورئيس أساقفة أوكسيان وأراميا Auxienne, Aramia، بوضع التاج على رأس العروس وأعلنوا هذه السيدة من مملكة ناڤار الصغيرة، ملكةً على إنكلترا.

لِمَ قام ريتشارد بهذا العمل الذي بدا مناقضاً لشخصيته وميوله؟ لِمَ الآن؟ ولِمَ أصلاً؟ ألم يكن في وسعه أن يؤجّل الزواج حتّى وصوله إِلىٰ الديار المقدَّسة؟ أَو أن يؤجّله إِلىٰ ما لا نهاية بحجّة حملته الصليبية؟ أم تراه قصد الآن بالذات، وبجهد بطولي، في غمرة حملته، أن ينجب وريثاً لعرش بلانتاجينيه؟

بين الأجوبة المتحيّزة عن هذه الأسئلة جواب ينتمي إِلىٰ مجال الجغرافيا السياسية غير الرومانسي. فقد كان الملك ولا شك قلقاً على مملكة بلانتاجينيه النائية والمتراجعة بعيداً عن قبضته. وفي عقد قرانه، وهب الملك للملكة الجديدة كلّ أراضيه في غسْقونيا تحت نهر الغارون. كانت هذه الناحية من ممتلكاته في جنوب غرب فرنسا ممزّقة بسبب النزاعات ويقيم فيها عدد من النبلاء الجموحين والمستقلّين، ولم يكونوا معجبين بريتشارد أَو موالين لأسرة بواتييه. لكن غسْقونيا متاخمة لناڤار. ومعاً كانت المنطقتان تشكّلان وقاءً ضد منطقة تولوز في الشرق، والتي تكنّ تقليدياً وصراحة عدائية لدوق أكيتان. وإذا كانت الجغرافيا السياسية بالفعل تفرض المهمّة، فعليه أن يؤدّيها هنا، في قبرص، قبل أن يصل إِلىٰ الديار المقدَّسة، في حضور حبيبه السابق المحب للانتقام، والحسّاس، والماكر، والساخط، فيليب ملك فرنسا. أمّا بالنسبة إِلىٰ إنجاب وريث، فالحلوى تثبت جودتها عند الأكل.

في يوم ذلك الحدث المفرح وصلت بقية أسطول ريتشارد إِلىٰ ليماسول آتيةً من رودس. ربّما كان ذلك، وأكثر بكثير من زواجه الصوري، هو ما ساهم في رفع معنويات الملك مساهمة كبيرة.

0 km 50
0 miles 30
Fortress قلعة
Battle معركة
البحر المتوسط
Mediterranean Sea
Cape St. Andrea
القنطرة
Kantara
St. Hilarion
كيرينيا
Kyrenia
KYRENIA MOUNTAINS
Buffavento
KARPAS PENINSULA
MESAORIA
Nicosia
نيقوسيا
Famagusta
فاماغوسطا
Trematousa
جبال
TROODOS MOUNTAINS
ترودوس
بافوس
Paphos
Limmassol ليماسول
Kolossi
كولوسي
Cyprus قبرص

II

سلاسل من الفضّة

قبل الزواج بيوم واحد وصل ملك القدس **غي** إلىٰ قبرص ومعه ثلاث سفن. كان آتياً مباشرة من خنادق عكّا، يرافقه بعض وجهاء المملكة اللاتينيّة و160 فارساً. وبالرغم من التحضيرات التي كانت جارية على قدم وساق للزفاف في اليوم التالي، وجد ريتشارد الوقت ليخرج ويرحّب بحليفه ويشرّفه باصطحابه له كندّ إلىٰ مكان إقامته في قلعة ليماسول.

مهما يكن منصبه ملوكياً، يمثّل **غي** صورة مؤسفة: فقد كانت سنواته الأربع الأخيرة قاسية، إذ أسره صلاح الدِّين لمدّة سنة بعد موقعة حطين ثمّ أطلق سراحه في شهر تموز/ يوليو 1188م بشرط ألاّ يعود ويوجّه سلاحاً ضدّ المسلمين. ولم يحافظ **غي** على عهده هذا أكثر من سنة واحدة حنث به بعدها وبدأ في تموز/ يوليو 1189م حصار عكّا الذي استمرّ حوالي السنتين بلا جدوى. فبقي لا يحظى بالتقدير، ويتلقّى الجزء الأكبر من الملامة على الهزيمة في حطّين، والتحدّي المباشر من أجل منصب القيادة من قبل مركيز صور، كونراد دو مونتفرّا. ولزيادة وضع غي تعقيداً، كانت زوجته سبيلا قد توفّيت الخريف الماضي بسبب وباءٍ انتشر في صفوف المسيحيين، وهكذا ضعفت أكثر مطالبته بالعرش، الذي يأتيه مباشرة عبرها. إذاً جاء الآن يشكو إلىٰ ريتشارد أنّ فيليب ملك فرنسا، وفور وصوله إلىٰ الديار المقدَّسة، تحالف مع خصمه كونراد، ويعمل على إضعاف كلمته في حصار عكّا.

كان الملك المسكين في حاجة إلىٰ من يسانده، وقد زوّده ريتشارد بما يلزم، فقدّم له ألفي مارك من الفضّة (كان المارك يساوي ثلثي الليرة) وعشرين كأساً ثمينة، اثنتان منها من الذهب الخالص. وفي المقابل، أقسم الملك غي على الولاء لريتشارد قائداً له. وفي حين كانت لهذا التحالف فوائده في المدى

القصير، كرّس ذلك انقساماً آخر في المعسكر المسيحي. كان هناك أصلاً التوتّر بين الإسبتارية والداوية، وبين الجيلين المسيحيين الثاني والثالث وكانا يسمّيان المبتدئين ومحدثي النعمة، وبين الملك **غي** وريمون كونت طرابلس، وبين الإنكليز والفرنسيين، وبين ريتشارد وفيليب. والآن أصبح ريتشارد و**غي** ضد فيليب وكونراد، ولم يعد هناك من مجال للشروع بمغامرة بطولية لاستعادة الأراضي المقدَّسة. وهذا أكثر ما يسرّ صلاح الدِّين.

في اليوم الذي تلا حفلة الزفاف أتى الإمبراطور إسحٰق متسلّلاً، قاصداً ريتشارد وساعياً للسلام. فرُتّب موعد للقاء بين الملك والإمبراطور في السهل القريب من ليماسول. وقرّر ريتشارد أن يجعل من المناسبة عرضاً حقيقياً. فارتدى أفخر ما لديه من البذلات الملوكية، ورمى بساقيه الطويلتين فوق جواده الإسباني الكبير. كان سرجه يتلألأ بالتوشيات الذهبية، والحصان مكسوّاً بثوب مزركش تثبّته زينة من أسدين صغيرين ومصبوبين من الذهب. كذلك كان مهماز ريتشارد من الذهب الخالص. أما رداؤه الفضفاض فكان ورديّ اللون تزيّنه أهلّة من الفضّة. وحول وسطه كان حزامه المنسوج يمسك بسيفه الشهير وقبضته الذهبية. وكان يعتمر قبعة قرمزية واسعة نُسجت عليها أشكال حيوانات وطيور متنوّعة، ويحمل بيده صولجان الحكم. كان يبدو رائعاً.

أوقع المشهد في قلب إسحق الرعب والهيبة، وأقسم على ولائه الدائم. ووعد بمشاركة متواضعة في الحملة بمئة فارس، وأربعمائة من خيّالته، وخمسمائة من مشاته وعرض كلّ قلاعه في قبرص لتكون معاقل للجنود الصليبيين. وكتسوية لسرقته النقود من حطام السفينتين الصليبيين، قدّم ألفي مارك ذهبي، وللضمانة قدّم ابنته ووريثته الوحيدة لريتشارد رهينة. عندها التفت ريتشارد إلىٰ مجلسه وقال: «سادتي، أنتم ذراعي اليمنى. هل يؤذي هذا الصلح كرامتكم، المعرّضة للخطر هنا؟ إن كان يرضيكم فليكن، وليبطل إن بدا لكم مضرّاً». فأجابوا قائلين: «نرى أنّه مفيد يا سيد، بسلام كهذا تُحفظ كرامتنا».

وهكذا كان. وقّع على الهدنة وخُتمت بقبلة السلام، وعاد الملك على حضانه إلىٰ ليماسول في كامل الرضا، بعدما أعاد إلىٰ الإمبراطور الخبيث رايته في بادرة صداقة. وقد رُفعت بطقس احتفالي في المكان الذي شهد مؤتمر السلام، تحت نظرات حرّاس الملك، طبعاً.

غير أنّه في تلك الليلة، وفي جوّ شبيه بأجواء خيانة قبرصية أخرى جرت بعد أربعمائة سنة (ياغو وعطيل)، جاء فارس إلىٰ إسحق وأثار الشكوك حول تطمينات ريتشارد وقال إنّها كاذبة وإنّ الملك الإنكليزي ينوي القبض على الإمبراطور وتقييده بالسلاسل. السلاسل؟ ارتعد إسحق لمجرّد الفكرة. فمنذ سنوات سجنه الأوروبي، بقيت السلاسل تخيفه أكثر من أيّ شيء آخر. أمّا حافز ذلك الواشي، الذي كان من صف فيليب ملك فرنسا ولكن لا يعمل بموجب أوامر، فكان تأخير ريتشارد أكثر وشغله بقتال داخلي في قبرص ليعطي معلّمه، فيليب، فرصةً أكبر للحصول بمفرده على المجد في الديار المقدَّسة بعيداً عن ظل ريتشارد. عندئذٍ غافل إسحق حرّاس الملك النائمين، وامتطى جواده الأصفر وهرب إلىٰ فاماغوستا. ومن هناك أعلم ريتشارد بانقلاب رأيه، وأعلن عداءه، وأقسم على طرد هذا المحتلّ الأجنبي خارج جزيرته.

ربّما كان تغيّر رأي إسحاق بالضبط هو ما كان يتمنّاه ريتشارد. فقد قدّم للملك الإنكليزي ذريعةً إخضاع الجزيرة كلّها لاستغلال ثرواتها. فبفضل موقع قبرص الاستراتيجي قبالة ساحل فلسطين وخصوبة أرضها، كانت هذه الجزيرة القاعدة المثالية للتموّن ولانطلاق الحملة الصليبية. وإذا استحوذ عليها الملك، ستؤمّن له مصدراً دائماً للمؤن على مدى الحملة بكاملها. مسكينة قبرص. أفروديت تُنتهك من جديد. لقد قُدّر للجزيرة أن تكون ضحيّة الآخرين، سلّة خبز الآخرين، حصن الآخرين الاستراتيجي. في النهاية، ومن وجهة نظر المواطنين، ظهر أنّ ريتشارد ليس أفضل من إسحق. وبحسب كلمات الراهب نيوفيتوس، أخرجت العناية الإلهية الكلاب وأحضرت الذئاب مكانها.

كانت مشكلة ريتشارد الآنية ـ أَو فرصته ـ مطاردة إسحق والإيقاع به.

لذلك قسّم أسطوله إلىٰ نصفين، وأرسل مجموعة حربية غرباً نحو بافوس وشبه جزيرة أكاما إلىٰ كيرينيا، وأمر باكتساح كلّ السفن التي يمكن إيجادها، بينما أخذ النصف الثاني ناحية آيانابا إلىٰ فاماغوستا. وفي هذه الأثناء سلّم الملك غي قيادة جيشه وأرسله برّاً إلىٰ فاماغوستا. فمنذ سقوط عكّا في يد صلاح الدِّين قبل أربع سنوات أصبحت فاماغوستا، على ساحل قبرص الشرقي، مرفأ كبيراً وسوقاً تجارياً مهمّاً شرق البحر المتوسّط. كما استقرّ فيها الكثيرون من مواطني عكّا. كانت قلعتها ومدينتها المسوّرة تواجهان البحر، وبعد عدّة قرون صار برج تلك القلعة يُعرف باسم «برج عطيل». كان ثغرها أفضل ثغور الجزيرة، وشوارعها الضيقة تعجّ بتجّار وبضائع القارات الثلاث. لقد أصاب إسحق في هربه وسط تلك الفوضى العارمة.

لكن رؤية سفن ريتشارد تصل بهذه السرعة إلىٰ الميناء بعد وصول إسحق بقليل أوقعت الوجل في قلبه. فهرب من فاماغوستا إلىٰ سهل الجزيرة الكبير، ميزاوريا، وهو محيط واسع من العشب تتخلّله أشجار زيتون وتقصده النمور والسراب. وترتفع خلف هذا الامتداد المحيّر القمم المستدقّة لسلسلة جبال كيرينيا الشمالية، التي تنتصب في أعاليها قلاع إسحق الضخمة بوفافنتو Buffavento، وديودامور Dieudamour، وكانتارا Kantara.

قبل أن يدخل ميزاوريا Misaoria، تباطأ ريتشارد في فاماغوستا. فقد وصل رسل من عكّا وجاءوا لزيارته وإعاقته هناك. إذ أرسل إليه الملك فيليب أسقف بوفي Beauvais المحنّك وكبير موظّفيه لمعرفة سبب تأخّر ريتشارد المكْلف عن الذهاب لإنقاذ الأراضي المقدَّسة. كان فيليب قد بنى آلات حصاره وانتظر متأهّباً، يدير إبهاماً حول الآخر. لم يشأ أن يبدأ هجومه على عكّا قبل وصول ريتشارد. أين هو حليفه؟ تميّز اللقاء بجوّ من التوتّر، ومال السفيران إلىٰ اتّهام ريتشارد بالكسل وعدم الانتظام. فما شأن قبرص بحملتهم الصليبية؟ يبدو

أن أفكار الملك تشتّتت فضلّ سبيله. لِمَ لم يبقَ ريتشارد مركّزاً على السبب الأساسي لمجيئه إلىٰ الشرق؟ وقال الشاعر إنّه «قيل كلام لا يليق به أن يُذكر أَو يُكتب هنا». لقد بذل ريتشارد كلّ جهده ليحافظ على هدوئه تجاه هذا التشهير، الذي لم يمنعه من الإصرار على تحقيق مطلبه. كان يجب إخضاع شرير قبرص. وأكثر من ذلك، كان ريتشارد يريد حصان الإمبراطور الجميل.

في نيقوسيا في تلك الأثناء، كان إسحاق يجمع كلّ الجنود الذين يستطيع حشدهم. وكانت مهمّته عسيرة، نظراً لكون الكثيرين انضمّوا إلىٰ ريتشارد. وحتّى في داخل حرسه، كان يواجه التحدّي. ذات ليلة عند العشاء في نيقوسيا قال له أحد نبلائه: «سيدي، ننصحكَ بأن تعقد الصلح مع ملك إنكلترا، وإلاّ ستدمَّر مملكتكَ بكاملها». عندما قدّم المنشق هذه الملاحظة الجريئة، صدف أنّ إسحق كان يحمل سكّيناً، على وشك أن يقطع به شريحة من اللحم أمامه. لكن بدل أن يهجم الإمبراطور على شريحته، هاجم النبيل وقطع أنفه.

مضى إسحق بسبعمائة رجل تقريباً إلىٰ خارج نيقوسيا نحو السهل وواجه قوات ريتشارد في مكان يسمّى تريماتوسا. فجرت معركة سريعة وضارية هناك، لكن المستوى كان متفاوتاً جدّاً. كلّ ما يستحقّ الذكر من تلك الواقعة محاولة إسحق إطلاق سهام مسمّمة على ريتشارد. لقد أراد إسحق أن يضرب ويهرب، لكنه أخفق، والآن عليه أن يفرّ بأقصى سرعته إلىٰ مرتفعات بوفافنتو على حصانه الرشيق، لأنّ ريتشارد كان غاضباً فعلاً.

بينما كان إسحق يراجع مصيره، بدا المشهد من بوفافنتو ملفتاً، كان اسم قلعته على قمّة ذلك الجبل مناسباً جدّاً، حيث كانت أسوار ذلك المعقل متشبّثة بالجرف الصخري على القمة الثانية من حيث العلو في السلسلة الشمالية، وكانت الرياح تضرب جدرانه والسحاب يلفّها. عندما انقشعت الغيوم، نظر إسحق صوب الجنوب فوق ميزاوريا حتّى نيقوسيا، التي أصبحت الآن في قبضة ريتشارد، ورأى صفوف قوات الملك تشقّ طريقها نحوه. وإلىٰ الشمال، نظر

إلىٰ البحر المتوسّط في زرقته وإلىٰ ثغر كيرينيا الصغير، الذي ملك فيه أجمل قلاعه. الآن تحيط به قوادس ريتشارد، ولم تعد للسلسلة الكبيرة عند مدخله أي جدوى. هناك كانت ابنته، التي سرعان ما أدركت عبث مقاومة هذه القوة الكاسحة، وركعت على ركبتيها أمام الملك غي. وأثّر هذا المشهد في نفس الملك، ربّما لأنّ ابنة إسحق كانت على قدر من الجمال. فأرسلها إلىٰ خارج ليماسول لتصبح وصيفة الملكة بيرنغاريا.

بعدما وقعت قلعة كيرينيا في يد الملك غي، قسم قواته لمهاجمة القلاع الموجودة في الأعلى. وعندماشاهد إسحق الجنود يلتقون في بوفافنتو، غادرها إلىٰ ديودامور، حصنه الذي سُمّي على اسم كيوبيد إلٰه الحب وغالباً ما ربط بينه وبين أسطورة الحسناء النائمة. الآن لن ينجده الحبّ ولا الأسطورة، ولو أنّ حصن ديودامور كان يُعتبر مستعصياً على الاختراق. لقد أغرق جنوده أنفسهم في شرب الخمر وهم يشاهدون عساكر ريتشارد يصعدون الجبل. فترك الإمبراطور حرّاسه في ثمالتهم وتحرّك شرقاً بمحاذاة الحرف الجبلي إلىٰ قلعته الأخيرة، كانتارا، حصن المائة غرفة. لكن وضعه كان ميؤوساً منه، وجنوده بلا معنويات، وخصمه في عزم وإصرار. لقد حُشر أخيراً عند طرف شبه جزيرة كارباس، ذيل الثور الذي يشير نحو الديار المقدَّسة والذي يباركه وجود دير القديس أندراوس.

في رأس القديس أندراوس، المكان الذي دخل عبره الرسول نفسه إلىٰ قبرص لأوّل مرّة، تمّ القبض على إسحق كومنينوس، فصادر ريتشارد على الفور حصان أسيره الرائع، الذي أسماه فوڤيل، في تحريف للكلمة اللاتينيّة «فولفوس fulvus»، بسبب لون الجواد الأصفر الزاهي. خرّ الإمبراطور على الأرض أمام الملك الإنكليزي وتوسّل إليه، قبل أيّ شيء، ألاّ يقيّده بسلاسل حديدية. لقد أصبح خوفه من السلاسل مرضيّاً. لذلك أوصى ريتشارد بصنع سلاسل من الفضّة. وعندما قيّد بها الإمبراطور، وضع على سفينة أبحرت به

إلىٰ قلعة المرقب الإسبتارية المظلمة والموحشة على الساحل السوري.

كان آخر إمبراطور بيزنطي حكم قبرص.

بعدما تخلّص الملك الصليبي الكبير من هذه المشكلة المزعجة، صار بإمكانه أن يحوّل انتباهه إلىٰ القضية الأساسية. كانت الأرض الموعودة تومىء إليه وتلتمس مساعدته. وكذلك عكّا، المدينة المعذّبة. كانت المقصد الأوّل والهدف الأوّل لهذه الحملة المقدّسة والمجيدة. وقد كتب كبير مؤرّخي الحملة الصليبية الثالثة يقول: «إن كانت حرب عشر سنوات شهرت مدينة طروادة، وإن كان انتصار المسيحيين عرّف أنطاكية إلىٰ العالم، فإنّ عكّا ولا شك ستنال شهرة أبدية كمدينة تنافس عليها العالم بأسره».

عكّا! بوّابة الأراضي المقدّسة. الاسم وحده كان يملأ بالحماس صدور أفراد الجيش المسيحي.